

في بَلاط المُتنبي

(الحلقة الثالثة)

بقلم الأستاذ: محمد ولد إمام

لا شك عندي أن أبا الطيب كان طُلعة فقد روى الرواة أنه كان يقيم في دكاكين الوراقين (المكتبات) ويبيت فيها يطالع الكتب، يقول عنه وراق: "ما رأيت أحفظ من ابن عبدان (لقب أبيه كما يدعي الرواة)، كان عندي اليوم وقد أحضر رجل كتاباً نحو ثلاثين ورقة ليبيعه، فأخذ ابن عبدان ينظر فيه طويلاً، فقال له الرجل: يا هذا أريد بيعه، وقد قطعتني عن ذلك، فإن كنت تريد حفظه فهذا يكون، إن شاء الله، بعد شهر. فقال له ابن عبدان: فإن حفظته في هذه المدة، فما لي عليك؟ قال أهدي لك الكتاب. قال، فأخذت الدفتر من يده، فأقبل يتلوه، حتى انتهى إلى آخره". وتقول الحكاية إن المتنبي أخذ الكتاب ومضى بمباركة صاحبه.

وهذه المطالعة أكسبت أبا الطيب ثقافة واسعة تجدها جلية في شعره، ومَن طالع "الرسالة الحاتمية" سيدرك مدى اتساع ثقافة الرجل الفلسفة، ومدى اطلاعه على الفلسفة اليونانية الأرسطية خصوصا.. كما نراه يذكر المانوية وهي فرقة ليست مشهورة ترى أن النور خير كله وأن الظلام شر كله:

وَكَمْ لظلامِ الليلِ عندكَ من يدٍ
تُخبّرُ أنّ المانويةَ تكذبُ
وقاكَ ردى الأعداء تَسري إليهمُ
وزاركَ فيه ذو الدّلالِ المُحجّبُ

وكذلك تجد آثار هذه الثقافة وتلك المطالعات في رائيته لابن العميد حيث يقول:

مَنْ مُبلغُ الأعرابِ أنّي بَعْدَها
جالستُ رسطاليسَ والإسكندرا
وَسَمعتُ بطليموسَ دارسَ كُتْبِهِ
مُتَملّكاً مُتَبدّياً مُتَحضّرا
وَلَقيتُ كلّ الفاضلينَ كأنّما
رَدّ الإلهُ نُفُوسَهُمْ والأعصُرا

وأعتقد جازما أن علاقة أبي الطيب بسيف الدولة وبفاتك بعد ذلك كانت علاقة حب وصداقة وإعجاب متبادلة، ولم تكن مجرد علاقة شاعر بأمير أو والٍ. واقرأ معي قصائده فيه وستلاحظ معي أمرين، أولهما تخفيفه من الغلو والمغالاة في الفخر، والذي قدّمنا أن ذلك كان لحاجة في نفس الرجل خصوصاً عندما تجبره الظروف على مدح من هو دونه أو على الأقل يراه دونه، ولا أمرّ ولا أمضّ من ذلك، والأمر الثاني هو صدق العاطفة، ويكفي أن تعلم أن المتنبي قد مدح سيف الدولة بعد عودته من مصر في آخر أيامه،

وتعلم أيضاً أن سيف الدولة بعث لأبي الطيب هدايا ودعاه للعودة إليه، واقرأ لامية أبي الطيب الرائعة:

مَا لنَا كُلُّنا جَوٍ يا رَسُولُ
أنَا أهْوَى وَقَلبُكَ المَتْبولُ.

وسنورد منها أبياتاً قمة في الروعة وإن كانت القصيدة كلها غاية في الحسن،

يقول في أولها:

والمُسْمَوْنَ بالأميرِ كثيرٌ
والأميرُ الذي بها المأمُولُ
الذي زُلْتُ عَنْهُ شَرْقاً وَغَرْباً
وَنَداهُ مُقابِلي ما يَزُولُ...
ليسَ إلاّكَ يا عليُّ هُمامٌ
سَيْفُهُ دونَ عِرْضِهِ مَسْلولُ
كَيفَ لا تأمَنُ العِراقُ وَمِصْرٌ
وَسَرَاياكَ دونَهَا وَالخُيُولُ
لَوْ تَحَرّفْتَ عَنْ طَرِيقِ الأعادي
رَبَطَ السِّدْرُ خَيلَهُمْ وَالنّخيلُ

وهنا أيضاً يظهر لك رأي أبي الطيب الذي يرى أن سيف الدولة هو الحامي والمحامي عن دولة العرب، ولولاه لوصل الأعداء سدرَ مصرَ ونخلَ العراق!

أنتَ طُولَ الحَياةِ للرّومِ غازٍ
فَمَتى الوَعْدُ أنْ يكونَ القُفُولُ
وَسِوَى الرّومِ خَلفَ ظَهرِكَ رُومٌ
فَعَلى أيّ جَانِبَيْكَ تَمِيلُ
قَعَدَ النّاسُ كُلّهُمْ عَنْ مَساعيـ
ـكَ وَقامَتْ بها القَنَا وَالنّصُولُ
ما الذي عِنْدَهُ تُدارُ المَنَايَا
كالّذي عِنْدَهُ تُدارُ الشَّمُولُ

وتأمل قوله:

وَسِوَى الرّومِ خَلفَ ظَهرِكَ رُومٌ .. تجد ما قلنا من أن المتواطئين من الأعراب ومن ملوك العجم لا يقلون خطورة عن الروم في حقدهم وعدائهم لسيف الدولة ولملكه.

قصة كتاب

• عبد الرحمن ولد محمد باب

في هذه الصفحة الأسبوعية سنعرف بكتاب ومؤلف غير متقيدين ببلد أو جهة وإنما نقصد كل كتاب له قصة وكل مؤلف له شأن وقد نأخذ من الفلسفة ومن الفقه ومن التاريخ إلى غير ذلك ليكون في ذلك إمتاع ومؤانسة للقارئ.

قصة اليوم تتعلق بكتاب للغزالي هو المنقذ من الضلال ونبدأ بترجمة الغزالي ثم نردفها بقصة الكتاب:

ترجمة المؤلف:

يمثل الإمام الغزالي قمة من قمم الثقافة الإسلامية ستظل شامخة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وقد بعث الله الإمام الغزالي على رأس المائة الخامسة ليجدد لأمة الإسلام دينها فقد ولد الإمام الغزالي في سنة خمسين وأربعمائة واشتغل بالعلوم الدينية على إمام الحرمين أبي المعالي الجويني وصار من أعيان الشافعية في عصره وكان يحتج به وبعلمه وقد تولى التدريس في المدرسة النظامية في بغداد التي أنشأها الوزير نظام الملك إلى ترك كل ذلك وسلك طريق الزهد وقصد الحج ومنه توجه إلى دمشق وأقام الدروس بالزاوية الغربية من الجامع الأموي التي عرفت باسم زاوية الغزالي ،وصنف الإمام الغزالي الكتب العظيمة الجامعة والمصنفات الجليلة النافعة وخلف لنا رائعته إحياء علوم الدين التي قال عنها الإمام السيوطي أنه لو لم يؤلف غيره لكفاه وقال عنها أبو الحسن الشاذلي كتاب الإحياء يورث العلم. وقيل فيه أيضا لو ذهبت كتب الإسلام وبقي الإحياء لأغنى عن ما ذهب وبرع في كل فن وعلم من العلوم الإسلامية حتى علم الحروف والأسماء إلى أن حاز فيها لقب عمدة علم الحروف والأسماء وأقبل في أواخر أيامه على طريق الصوفية فحذقه علما وتحقق به عملا حتى استطاع أن يؤلف بين علم التوحيد وتعاليم الصوفية وأذواقهم وجعل من هذا الطريق سبيلا إلى اكتساب السعادة الحقيقة وعرض كل ذلك في أكثر من كتاب من كتبه واتخذ خانقاه للصوفية ومدرسة للعلم بجوار منزله وقسم أوقاته بين العبادة وختم القرآن وحفظ الأحاديث ومجالسة الصالحين وكان لا يأكل إلا من أجرة النسخ وتوفي الإمام الغزالي قدس سره في جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة وعمره خمس وخمسون سنة.

قصة الكتاب:

المنقذ من الضلال" كتاب من تاليف الغزالي بعد عودته من رحلته التي قضاها متنقلا بين الشام والقدس ومكة. إذن فهو يقع في المرحلة الثانية من حياة الغزالي، مرحلة النضج وتوضيح الخيارات النهائية. وفي المنقذ من الضلال يذكر أن سنه قد قارب على الخمسين مما يحدد وضعه الكتاب أواخر عام 499هـ وبدايات عام 500هـ في نيسابور حين عاد إلى التدريس في نظاميتها لتبيان حقيقة النبوة. أما دافع الغزالي إلى تأليف كتابه هذا وهدفه منه، وكما يبدو من مقدمته، أنه رسالة إلى أخ في الدين، يطلب فيها هذا الأخير من الغزالي أن يبث إليه "غاية العلوم وأسرارها، وغائلة المذاهب وأغوارها، وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحقائق بين اضطراب الفرق". وإذا كان ذلك هو الدافع الحقيقي، أو أن هناك دوافع أخرى، فإن الملاحظ أن الغزالي أراد من خلال منقذه أن يبين لنا مسار حياته الفكرية والروحية، وكيفية خروجه من الشك وصولا إلى خياراته النهائية في الحصول على نور اليقين، والتصديق النهائي. إن دواعي التصديق لم يجدها الغزالي لا في علم الكلام ولا في الفلسفة ولا في مذهب التعليمية. بل عند الصوفية فهل يكون الهدف من كتاب المنقذ تبيان صحة مذهب الصوفية.

وبقول الغزالي في بداية الكتاب:

اعلموا - أحسن الله (تعالى) إرشادكم ، وألانَ للحق ق?ادكم - أن اختلاف الخلق في الأد?ان والملل ،ثم

اختلاف الأئمة في المذاهب ، على كثرة الفرق وتبا?ن الطرق ، بحر عم?ق غرق ف?ه الأكثرون ، وما نجا

منه إلا الأقلون ، وكل فر?ق ?زعم أنه الناجي ، و((كلّ حزب بما لد?هم فرحون)) (الروم، 32) هو الذي وعدنا به س?د المرسل?ن ، صلوات الله عل?ه ، وهو الصادق الصدوق

ح?ث قال: ((ستفترق أمتي ثلاثاً وسبع?ن فرقة الناج?ة منها واحدة)) فقد كان ما وعد أن ?كون.